

عرسال في مرمى النار: مازق بلدة لبنانية حدودية صغيرة

إحاطة حول الشرق الأوسط رقم 46
23 شباط/فبراير 2016، ترجمة من الإنكليزية

عرسال في مرمى النار: مازق بلدة لبنانية حدودية صغيرة

I. نظرة عامة

الدولة اللبنانية، التي أضعفتها الخلافات داخل الطوائف وفيما بينها، تخلت تدريجياً عن دورها الرئيسي في الحكم وفي إدارة الحياة السياسية التمثيلية وهي تعتمد بشكل متزايد على الإجراءات الأمنية للمحافظة على الاستقرار والوضع السياسي الراهن. وتشكل بلدة عرسال الحدودية البعيدة في الشمال الشرقي مثلاً بارزاً على هذا النهج في معالجة الاضطرابات. يتسم هذا النهج، الذي تصاعد بعد بداية الحرب السورية في الجوار، بالخطورة وقصر النظر، إذ إنه يعالج الأعراض بينما يعزز في الوقت نفسه ومن غير قصد العوامل الكامنة المسببة لعدم الاستقرار. لو عالجت الحكومة محنة عرسال بطريقة أكثر توازناً تأخذ تلك العوامل في الاعتبار من خلال إدماج المكون الأمني في استراتيجية سياسية شاملة، لكان بوسعها تحويل حلقة مفرغة شريرة إلى حالة إيجابية، ومنع تردي الوضع في البلدة وتقديم نموذج لمعالجة تلك المشاكل في البلاد بأسرها.

تجمع عرسال العديد من المصاعب التي يعانيها لبنان، والمتمثلة في تردي الوضع الاقتصادي وسوء الإدارة في مناطقه البعيدة، وصياغة خطوط التصدع الطائفية لمصير جيب سني محاط بمحافظة ذات أغلبية شيعية (بعلبك - الهرمل) في البقاع، وقيادة سنّية ضعيفة تزداد ضعفاً، وتنامي قوة حزب الله، الحزب الشيعي اللبناني الذي يشارك ذراعاً العسكري بشكل مباشر في القتال الدائر في سورية؛ بالإضافة إلى تداييع الصراع السوري. لقد حوّل هذا العامل الأخير عرسال إلى قاعدة خلفية للمقاتلين المعادين للنظام، ونقطة عبور للعبوات المتفجرة. ولهذين السببين، تحولت البلدة إلى تهديد لحزب الله وللأجهزة الأمنية اللبنانية. كما أن ذلك جعل البلدة ملاذاً آمناً أولاً للاجئين السوريين، ما يضيف إلى الضغوط الحادة الواقعة على الدولة اللبنانية بشكل عام وعلى المناطق المحلية في سائر أنحاء لبنان.

أدت معركة دامت خمسة أيام بين الجهاديين السنّة والجيش اللبناني في آب/أغسطس 2014 إلى وضع عرسال على الخارطة بوصفها تهديداً وطنياً في أذهان العديد من اللبنانيين. حاصر الجيش البلدة، وفرضت نقاط التفتيش التي أقامها صعوبات كبيرة على سفر العرساليين العاديين وعلى غير العرساليين الراغبين بزيارتها، وعلى وصول المساعدات إلى آلاف اللاجئين المتجمعين في المنطقة وحتى على وصول الفلاحين المحليين إلى أراضيهم. وفي حين انهار اقتصاد البلدة، ظلت المجموعات السنّية المسلحة موجودة، وتمتعت فيما يبدو بنوع من التسوية المؤقتة مع الجيش شريطة عدم القيام بتحركات ملفتة للنظر. في مثل هذا المازق المتصاعد الذي يجمع الاضطرابات الاجتماعية والاستياء الشعبي، فإن المجموعات السورية المتطرفة، مثل تنظيم الدولة الإسلامية (المعروف بداعش) وجبهة النصرة، هي المستفيدة الأكبر، إذ يمكنها تعبئة الغضب المحلي وتطويعه ليتلاءم مع رؤيتها.

لقد تراجعت حدة العنف في عرسال وما حولها نتيجة حصار الجيش لكن هذا العنف لم ينته. قد يكون الرد العسكري اللبناني مفهوماً؛ إذ إن الاستقرار الهش في البلاد لا يتيح مجالاً للتراخي أو لاتخاذ مخاطر سياسية، خصوصاً في البيئة الإقليمية الحالية التي تتسم بخطورة عالية. إن تعطل أجهزة الدولة يعطي للقوات المسلحة اللبنانية مطلق الصلاحية بحكم الأمر الواقع، لأنها تمثل إحدى المؤسسات النادرة التي لا تزال قادرة على العمل. علاوة على ذلك، فإن تدفق الأعداد الهائلة من اللاجئين، الذي بلغ أكثر من ربع سكان لبنان، فاقم

المشاكل التي كانت موجودة من قبل ووضع ضغوطاً كبيرة على الموارد الشحيحة أصلاً، ما يجعل من الصعوبة البالغة حتى بالنسبة إلى حكومة فعالة أن تتمكن من تلبية الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية.

رغم ذلك، فإن الاعتماد الكبير للدولة على الأمن لحل جميع أشكال المعضلات السياسية والاجتماعية لا يشكل حلاً مستداماً. إذا كان لأي شيء أن يفسر بشكل أكثر تحديداً كيف خرج الوضع في عرسال عن نطاق السيطرة، فإن ذلك يتمثل في سجل طويل من إهمال السلطة المركزية؛ وإذا كان ثمة شيء يريده سكانها فعلاً، فهو درجة أكبر من وجود الأجهزة غير الأمنية للدولة، أي خدمات أساسية أفضل، وفرص اقتصادية، وتمثيل سياسي أفضل، وإيجاد حل لأزمة اللاجئين، أو على الأقل تخفيف حدتها، وتوفير خدمات شرطية فعالة بدلاً من العقاب الجماعي.

بالإضافة إلى حالة عرسال، المثيرة للقلق بحد ذاتها، هناك القضية الأكبر المتمثلة بتخلي الدولة تدريجياً عن واجباتها. نظراً إلى أن أداء الدولة في الإدارة والسياسة التمثيلية يزداد رداءة بشكل يومي، فإنها باتت تعتمد بشكل متزايد على التدابير الأمنية التي تخلو من أي مكوّن سياسي، أو إنساني أو تنموي جدي. لقد أثبتت هذه المقاربة أنها مغرية بشكل خطير، فهي تحافظ على استقرار ظاهري بينما تتسبب في المزيد من تهالك الدولة في حلقة تعزز وتديم نفسها، إذ إن الإجراءات التي تتخذها الحكومة للتعويض عن نواقصها تجعل الأمور أسوأ. على مدى سنوات، أصبح هذا السلوك نمطاً متكرراً في لبنان. وخارج حدود لبنان، تطوّر المنطق نفسه، كما في العراق، الذي ينبغي أن يكون التفكك التدريجي لدولته درساً تحذيرياً. بدلاً من قمع الأعراض عندما تتنامى ظواهر عدم الاستقرار، على السلطات اللبنانية أن تعالج الأسباب.

يمكن أن تشكل عرسال نقطة بداية جيدة. من أجل وقف المزيد من التردّي، على السلطات الحد من الإجراءات الأمنية التي يتخذها الجيش في البلدة وحولها لكن بطريقة تحافظ على فعاليتها الأمنية. على سبيل المثال، لا شيء يمنعها من إلغاء التصريح المطلوب لزيارتها من قبل غير أهلها، أو منحه للجميع، باستثناء الحالات التي يوجد فيها دليل واضح على سوء النوايا. كما ينبغي أن تخضع مزاعم انتهاكات حقوق الإنسان من قبل عناصر الأمن للتحقيق الفوري والصارم ومعاقبة الانتهاكات المثبتة. ثمة حاجة لإجراءات تمكن المزارعين المحليين من زراعة أراضيهم. وعلى السلطات تيسير وصول المساعدات الإنسانية الكافية للاجئين السوريين وتخفيف الضغط على عرسال بنقل بعضهم إلى مناطق أخرى في لبنان، وهي فكرة ناقشتها الحكومة لكنها لم تعمل بموجبها. إذا نجحت هذه المقاربة الشاملة في عرسال، يمكن للحكومة والجهات المانحة من ثم أن تطبّق الدروس المستفادة منها على نقاط الاضطراب التي يزداد عددها في البلاد. في تلك الحالة، سيترتب على الدول المانحة زيادة دعمها للبنان بشكل كبير لمساعدته على معالجة أزمة اللاجئين وأثارها على المجتمعات المضيفة. وسيترتب على الحكومة اللبنانية بدورها تخصيص الأموال الكافية لمناطق أخرى مثل عرسال تستضيف أعداداً كبيرة من اللاجئين، بهدف إقامة مشاريع اقتصادية ومشاريع بنية تحتية مستدامة وقابلة للحياة.

II. لعنة الوجود على الحدود

إن سياسة الدولة (أو انهيار هذه السياسة) في مناطق واسعة من لبنان تفاقم الانقسامات ومشاعر الحرمان لدى العديد من السكان. لقد شكل هذا نمطاً متكرراً منذ وقت طويل وأثر في عدد من الأماكن والأشخاص، رغم اختلاف الديناميكيات في كل حالة. لكن السمة المشتركة في كل هذه الحالات هي النهج الاحتوائي الذي يغلب عليه الطابع الأمني بوصفه حلاً وحيداً للمشاكل التي تتم معالجتها.

منذ عقود، على سبيل المثال، عززت الدولة وضع اللاجئين الفلسطينيين بوصفهم غرباء خشية استيعابهم من قبل المجتمع اللبناني، إلى درجة تفويض بعض الوظائف السيادية، مثل توفير الأمن، للفصائل الفلسطينية التي تسيطر على مخيمات اللاجئين، وترك وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) لتقديم الخدمات الأساسية والرعاية الاجتماعية. لقد حول هذا المخيمات إلى جيوب تخلت فيها الدولة عن الوسائل والطموح بحكم أراضيها.¹ تباغت الحكومة في البداية بإعادة إعمار مخيم نهر البارد في شمال لبنان، الذي دُمّر جزء كبير منه في مواجهة بين الجيش ومجموعة جهادية عابرة للحدود في عام 2007، تباغت

¹ Sari Hanafi, "Palestinian Refugee Camps in Lebanon as a Space of Exception", *Revue Asylon(s)*, no. 5, September 2008. انظر أيضاً تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 84، "أرض خصبة لزعزعة الاستقرار: مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان"، 19 شباط/فبراير 2016.

بإعادة الإعمار كفرصة لفرض سيادة الدولة في المخيمات الفلسطينية من جديد، لكن كان من الواضح تماماً عدم وجود أية متابعة.²

وينسحب المنطق نفسه على مجموعات تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع اللبناني. بعد انتهاء الحرب اللبنانية (1975-1990)، فوّضت الدولة بعضاً من مسؤولياتها إلى الأحزاب السياسية، وحزب الله على نحو خاص، في المناطق ذات الأغلبية الشيعية في الضواحي الجنوبية من بيروت (المعروفة بـ "الضاحية الجنوبية" أو "الضاحية")، والجنوب والبقاع. في أعقاب الصراع المدمر مع إسرائيل عام 2006، تخلت الحكومة اللبنانية عن واجبها بالتعويض على الضحايا والقيام بإعادة الإعمار، وتركت لحزب الله تنسيق وترتيب عملية التعافي وإعادة الإعمار مما صبّ في مصلحته السياسية.

رغم أن مثل هذا التخلّي يفسّر في كثير من الأحيان من منظور طائفي أو مذهبي، فإن السلطات المركزية ساوت في إهمالها الفئات اللبنانية المختلفة. عندما تلاشت حدة القتال المتقطع في نيسان/أبريل 2014 بين منطقتي باب التبانة ذات الأثرية السنية وجبل محسن ذات الطابع العلوي في طرابلس، تركت الدولة الطرفين ليقوما بترتيباتهما الخاصة.³ بدت الدولة مكتفية بـ "خطة أمنية" جمّدت الصراع المحلي بينما لم تفعل شيئاً حيال أسبابه العميقة، فبدت لطرفي خط الصدع الطائفي وكأنها تسعى إلى فصل المناطق المضطربة عن باقي أنحاء البلاد بدلاً من حماية السكان وإدماجهم في المجتمع.

تمثل عرسال، وهي بلدة يقطنها حوالي 30,000 نسمة في مساحة تبلغ 317 كيلومتر مربع تحيط بها جرد عرسال القاحلة في الشمال الشرقي البعيد، ضحية بارزة لهذه الممارسة المدمرة، التي تلجأ فيها السلطات المركزية إلى عزل مساحات متزايدة من الأراضي.⁴ البلدة التي ظلت لعقود مجرد بلدة حدودية عادية، ذات هوية متذبذبة (ممزقة بين دولة مركزية بعيدة وسورية المجاورة) واقتصاد مشوّه (يعتمد جزئياً على التهريب)، أصبحت مركزاً لأزمة سياسية أطلقتها الانتفاضة السورية عام 2011 وحولتها إلى بؤرة للمشاكل المحلية والوطنية. لا يتمثل أقل هذه المشاكل في تدفق عشرات آلاف اللاجئين السوريين الذين طغت أعدادهم الكبيرة على سكانها الأصليين.

أ. تاريخ من الإهمال

لقد تطورت علاقة عرسال المتوترة بالدولة اللبنانية على مدى قرن من انعدام الثقة والإهمال اللذين يغذيهما مزيج من الجغرافيا والديموغرافيا.⁵ باستثناء التدخل المتقطع، والذي يغلب عليه الطابع العسكري، فإن الدولة لم تظهر اهتماماً كبيراً بها طوال مطلع وأواسط القرن العشرين. لم يتغير الكثير بعد الحرب الأهلية، عندما عزز مشروع ريفي الحريري لإعادة الإعمار – الذي تمحور حول الاستثمار، القطاع المصرفي والسياحة – تراكم الثروة في المركز دون أن يفعل الكثير لتمكين المناطق المحلية الحدودية مثل عرسال التي كانت تعتمد بشكل كبير على الزراعة وبيع منتجاتها للأسواق المحلية والإقليمية.

² تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 117، "مازق لبنان مع الفلسطينيين: الصراع على نهر الباراد"، 1 أيار/مايو 2012. لم تتم إعادة إعمار المخيم بشكل كامل حتى الآن. **المدن**، 11 كانون الثاني/يناير 2016.
³ للمزيد من المعلومات حول خلفية الأحداث، انظر إحاطة مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 29، "أزمة جديدة، أشباح قديمة في لبنان" الدروس المنسية من باب التبانة وجبل محسن، "14 تشرين الأول/أكتوبر 2010، وتقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 160، "لبنان واستراتيجيات البقاء المضللة"، 20 تموز/يوليو 2015.
⁴ الجزيرة، 17 كانون الثاني/يناير 2014، مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين محليين، عرسال، تشرين الأول/أكتوبر 2012.

⁵ تبعد عرسال عن بيروت 135 كيلومتراً وهي مسافة كبيرة بمعايير لبنان، بالنظر إلى طبيعة الطرقات الجبلية المتعرجة ذات المسارين وتقع على الحدود الشرقية مع سورية. بعد تأسيس لبنان الحديث في عام 1920، نظر العديد من السكان في قرية عرسال ذات الأغلبية السنية إلى الدولة الحديثة بقلق، على أنها كيان مسيحي، وبالتالي دفعوا من أجل ضم القرية إلى سورية. تعمق اغترابهم عام 1958، عندما قامت حكومة كميل شمعون بسحق تمرد فيها ونشرت قوات كبيرة ضد النقاط الملتهية، بما في ذلك عرسال. باحثة أنثروبولوجيا قامت بدراسات متعددة حول عرسال قالت: "لن ينسى العرساليون أن الجيش قصف قريتهم عام 1958. ترك هذا الحادث ندوباً عميقة لدى سكان القرية حتى هذا اليوم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب مع ميشال عبيد، تشرين الأول/أكتوبر 2015. أدت الهزيمة السياسية لعائلة محلية بارزة في الانتخابات البلدية لعام 1963، والتي عزاها كثيرون في عرسال لتلاعب السلطات المركزية، إلى أحداث عنف متبادلة بين العائلات المحلية. وتم قمع الاشتباكات الناجمة عن ذلك بين السكان والشرطة. عبيد، "بين دولة وأخرى، دائماً على الهامش"، **بدايات**، رقم 6، صيف 2013.

كما أن التوازن السياسي الذي أعقب الحرب الأهلية عمل لغير صالح عرسال في مشهد سياسي يتسم بالطائفية على نحو متزايد، بمعنى أن البلدة جيب سني صغير لا يتمتع بأهمية انتخابية تذكر بالنسبة للمجموعات السياسية السنية أو الشيعية على حد سواء.⁶

دون خدمات من الدولة ودون تمثيل سياسي، سعى العرساليون لتحقيق الاكتفاء الذاتي من خلال التنوع التدريجي لاقتصاد قائم على الرعي إلى اقتصاد شمل الزراعة، ومقالع الحجارة وشبكة تهريب (للوود، والأغذية والأجهزة الكهربائية) ظلت نشطة رغم عمليات القمع.⁷ إضافة إلى إيجاد مصادر إيرادات محلية جديدة، استثمر السكان في تعليم أطفالهم كوسيلة للوصول إلى مؤسسات الدولة – خصوصاً الجيش وقوى الأمن الداخلي – والتي تخلت عنهم إلى درجة كبيرة. على حد تعبير جندي من عرسال: "بالكاد يمكنك العثور على أسرة ليس فيها فرد واحد على الأقل في قوات الأمن. خذي أسرتنا على سبيل المثال: من بين 4 شباب، هناك اثنان في الجيش والثالث في قوى الأمن الداخلي".⁸

رغم آليات المحافظة على البقاء هذه، فإن عرسال ظلت مهملة إلى درجة أنها لا تزال تفتقر إلى البنية التحتية والخدمات الأساسية: لا وجود لنظام صرف صحي مناسب؛ وطرق غير معبدة في كثير من الأحيان وبالكاد تحظى بالصيانة؛ وعدد قليل من المدارس، تفتقر إلى المعدات والموظفين المؤهلين؛ مركز صحي وحيد لا يحتوي تجهيزات كافية.⁹ لقد وُجد هذا الواقع قدراً من المرارة، ليس أقله نحو السياسيين الذين بدوا غير مباليين وضع البلدة حتى عندما كانت تتم إعادة إعمار جزء كبير من البلاد، وخصوصاً تيار المستقبل الذي أسسه رفيق الحريري في مطلع تسعينيات القرن العشرين.¹⁰ أحد سكان البلدة علق قائلاً: "بصرف النظر عما يمكن للمرء أن يؤوله، ففي لبنان بعد الحرب تم توزيع السلطة والحصص بين الطوائف الرئيسية بحيث تهتم باحتياجات جماعاتها. نحن لم ندخل في حساب أحد، ولذلك تُركنا خارج هذه المعادلة".¹¹

ما لا يقل أهمية عن ذلك هو أن غياب قيادة سياسية قوية في عرسال ترك السكان دون حماية تذكر ضد القوات السورية وأجهزتها الأمنية ثقيلة الوطأة. تساهل المجتمع المدني حيال ذلك الوجود بوصفه أفضل وسيلة للمحافظة على السلام في مرحلة ما بعد الحرب، خصوصاً في البقاع طوال عقد التسعينيات ومطلع العشرية الأولى من الألفية الثالثة.¹² شعر العرساليون بالانكشاف أمام التخويف، والابتزاز والإذلال الذي مارسه الجنود السوريون وعملاء المخابرات السورية أكثر من جيرانهم الشيعة نتيجة علاقة النظام السوري المضطربة مع الإسلاميين في أوساط الطائفة السنية السورية. أحد السكان قال: "لقد تحمّلنا أكثر من القرى

⁶ مع عدم وجود قانون انتخابي قائم على التمثيل النسبي، لم يتمكن العرساليون من انتخاب ممثلهم الخاصين، حيث إن الشيعة هم الأغلبية في دائرة بعلبك الانتخابية. لكن في سنوات ما بعد الحرب، تم انتخاب نائبين من عرسال بفضل تحالف مع حزب الله. تاريخياً، تمتع العرساليون والمجتمعات المحلية الشيعية المجاورة لهم بعلاقات ودية. معظم العرساليين الذين نزحوا إلى بيروت في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين أو بعد الحرب الأهلية اختاروا الضاحية الجنوبية ذا الأغلبية الشيعية مقصداً لهم. ونتيجة لذلك، فإن حياً في بئر حسن في الضاحية، يعرف باسم "حي العرسلية". ودفعت الانتماآت القومية واليسارية العديد منهم، حتى وقت قريب على الأقل، إلى دعم مقاومة حزب الله ضد إسرائيل. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان، ومحللين، وشخصيات محلية، عرسال، بعلبك، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2012 – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

⁷ Michelle Obeid, "Uncertain Livelihood: Challenges Facing Herding in a Lebanese Village", pp. 463-495, in Dawn Chatty (ed.), *Nomadic Societies in the Middle East and North Africa: Entering the 21st Century* (Leiden, 2006). في محاولة للسيطرة على تهريب الأسلحة في لبنان بعد الحرب، أحكمت السلطات السورية، التي مارست شكلاً من أشكال الهيمنة بين عامي 1990 و2005 على البلد الجار، قبضتها على الحدود، ما تسبب بعدد من الحوادث المميتة كان المهربون طرفاً فيها. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان في عرسال وبعلبك، تشرين الأول/أكتوبر 2012، أيار/مايو 2015.

⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2015.

⁹ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان ومسؤولين من عرسال، عرسال، بعلبك، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2012 – تشرين الثاني/نوفمبر 2015. انظر مدونة خالد الحجيري، "عرسال وهمومها".
¹⁰ www.ersal.yoo7.com/t61-topic، 21 كانون الثاني/يناير 2008.

¹¹ انظر www.almustaqbal.org. في أعقاب اغتيال رفيق الحريري عام 2005، تولى ابنه سعد قيادة تيار المستقبل الذي يحوز على أكبر كتلة في البرلمان. انظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 96، "سياسات لبنان: الطائفة السنية وتيار المستقبل"، 26 أيار/مايو 2010. لم يظهر رئيس الوزراء حينذاك اهتماماً كبيراً بتوسيع سلطته السياسية إلى المناطق الحدودية، السنية وغير السنية على حد سواء. غير أن العديد من العرساليين ومسؤولي تيار المستقبل يعتقدون بأن سورية منعت رفيق الحريري من توسيع خدماته إلى العديد من المناطق السنية، خصوصاً على الحدود. المرجع السابق.

¹² لم تولد عرسال عائلات من الوجهاء لتمثيل مصالحها في المركز. تقليدياً، كان الزعماء السنة يتحدرون بشكل خاص من المدن الساحلية مثل بيروت، وطرابلس وصيدا. كما أن البلدة لم تنتج قدراً كبيراً من الثروة بشكل يمكن أن يمول دوراً قيادياً لممثليها، كما حدث بالنسبة لسياسيين لبنانيين آخرين.

الأخرى على أيدي الأجهزة الأمنية السورية بسبب انتمائنا السني. بدا وكأن النظام يسعى، من خلال إساءة معاملتنا، إلى الانتقام من الإخوان المسلمين السوريين بعد انتفاضاتهم [في أواخر سبعينيات ومطلع ثمانينيات القرن الماضي، والتي بلغت أوجها في مذبحة حماة عام 1982].¹³

ب. السقوط في النسيان

لقد جعلت مكانة عرسال المهمشة في النظام السياسي اللبناني وموقعها على بعد بضعة كيلومترات عن الحدود السورية علاقاتها متذبذبة مع جيرانها السوريين. وفر القرب من سورية قنوات إضافية هي في أمس الحاجة إليها لتأمين الاحتياجات الأساسية؛ كما استفاد العديد من سكانها من الرعاية الصحية والوصول إلى سلع وخدمات أرخص عبر الحدود. وكنتيجة جزئية لذلك، فإن العلاقات عبر الحدود ازدهرت من خلال التزاوج، والمشاركة في المناسبات الاجتماعية والتهريب. وفي الوقت نفسه، أدى القمع السوري في تسعينيات القرن العشرين ومطلع الألفية الثالثة إلى نشوء قدر كبير من الاستياء في أوساط العرساليين الذين يفتقرون إلى وسائل الدفاع عن النفس. ولدت تلك المرارة، مصحوبة بالتوترات المرتبطة بقضايا الأرض، دينامية متذبذبة خضع فيها العرساليون بشكل عام للطريقة السورية في فرض الأمن والسلام، لكنها قاومتها بما يكفي لإثارة الأعمال الانتقامية.¹⁴

شكل اغتيال رفيق الحريري عام 2005 – الذي حمل كثير من في لبنان وخارجه مسؤوليته للنظام السوري والذي سرّع انسحاب القوات السورية – نقطة تحوّل بالنسبة للبلدة. العديد من العرساليين كانوا حريصين على الاعتقاد بأن الحكومة ستوفر لهم أخيراً إدارة أفضل، مما سيقلل من الانتهاكات الأمنية ويُلبي الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية ويعالج حالات انعدام المساواة.¹⁵ كما اعتبر كثير من منهم مشاركتهم الحاشدة في المظاهرات المناهضة لسورية في وسط بيروت فرصة لرص الصفوف مع شرائح واسعة من المجتمع، وبالتالي تشكيل قطيعة مع تاريخ من العزلة والتهميش.¹⁶ لكن مهما كان التضامن الذي حصل عليه العرساليون داخل الطائفة السنية فقد كان له ما يوازيه أو يزيد من التوترات المتصاعدة ليس مع جيرانهم السوريين المؤيدين للأسد وحسب، بل أيضاً، والأكثر أهمية، مع محيطهم الذي يشكل الشيعة أغليبيته. شعر العديد من الشيعة بأنهم مهددون بعد الانسحاب السوري، خشية أن يترك ذلك حزب الله، الذي يحظى بالرعاية السورية والذي أصبح مرادفاً للتمثيل الشيعي في لبنان، مكشوفاً وضعيفاً. يروي العرساليون كيف أنهم، ولدى عودتهم من المظاهرات في بيروت، جُرح العديد منهم عندما كان جيرانهم في قرية اللبوة الشيعية القريبة يرمون الحجارة على سياراتهم.¹⁷ على حد تعبير الباحثة الأنثروبولوجية ميشال عبيد "بلغت العداوة حداً بحيث أنه، في عدة مناسبات، وضع سكان اللبوة علامات ظرفية تشير إلى عرسال عليها، 'إسرائيل من هنا'".¹⁸

في السنوات التالية، ومع تكثف الديناميكيات السياسية اللبنانية واللبنانية – السورية حول قطبين – كتلة "8 آذار" الموالية لسورية بقيادة حزب الله وتحالف "14 آذار" المناهض لسورية بقيادة تيار المستقبل، الذي بات يقوده الآن ابن رفيق الحريري، سعد¹⁹ – لم يعد لدى العرساليين خيار سوى دعم تيار المستقبل، رغم انتقاداتهم

¹³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، عرسال، تشرين الأول/أكتوبر 2012. في شباط/فبراير 1982، سحق النظام السوري انتفاضة قام بها الإخوان المسلمون، ودمر أجزاء من مدينة حماة وذكر أنه قتل عشرات آلاف المدنيين والمتمردين. رويترز، 7 تموز/يوليو 2011.

¹⁴ صحفي شرح قائلاً: "كان العرساليون يزدرون الأشخاص الذين كانوا يتعاونون مع العملاء السوريين في لبنان. حاول كثيرون القيام بأعمالهم دون التعاون معهم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2015. في عام 2004، وصل الاستياء والتحدي السائد في أوساط اللبنانيين حيال سورية إلى عرسال. رأى كثيرون في انتخاب ممثلين مستقلين ومعادين لسورية للمجلس البلدي وسيلة لمقاومة الهيمنة السورية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع باحثة أنثروبولوجية، ومع سكان، ومسؤولين محليين، بعلبك، بيروت، أيار/مايو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

¹⁵ لمزيد من التفاصيل، انظر تقرير مجموعة الأزمات، "السياسات اللبنانية"، مرجع سابق.

¹⁶ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع عرساليين، عرسال، بعلبك، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2012 – تشرين الثاني/نوفمبر 2015. على حد تعبير ميشال عبيد، فإن العرساليين كانوا "يبحثون عن الوجه المثالي للدولة".

"Searching for the 'ideal face of the state' in a Lebanese border town", *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol.16, 2010, pp. 330-46.

¹⁷ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع عرساليين، عرسال، بعلبك، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2012 – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

¹⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب، تشرين الأول/أكتوبر 2015.

¹⁹ التوترات الطائفية المتصاعدة التي تلت الحرب الإسرائيلية عام 2006 مع حزب الله في لبنان، والاعتصام الذي قاده حزب الله (كانون الأول/ديسمبر 2006 – أيار/مايو 2008) لإسقاط حكومة السنيرة وصدّامات أيار/مايو 2008 بين ميليشيات "8 آذار" و "14 آذار" التي أدت إلى الهزيمة المذلة لميليشيات تيار المستقبل لقيت صدى عميقاً لدى

له لأنه لم يقدم لهم شيئاً ملموساً بالمقابل.²⁰ رغم ذلك، وفي الوقت الذي لم يحصلوا فيه على الكثير من الحريري، فإن هذا الانتماء الذي فرضته الظروف السياسية والهوية المذهبية التي طغت على انتماءات أخرى صعدت التوترات مع حزب الله والنظام السوري.

بحلول 2010-2011، كانت الأمور قد بدأت تتغير على نحو دراماتيكي؛ فقد ترك تراجع قيادة الحريري وزيادة قوة حزب الله أغلبية الطائفة السنية في حالة من التشتت وفقدان البوصلة.²¹ عشية التحولات الجذرية التي بدأت تحدث في سورية، كان العرساليون يشعرون بالخذلان والحصار أكثر من أي وقت مضى.

III. الحرب في سورية: عرسال تتصدر المشهد

أ. التصعيد العسكري

1. دور هامشي (2011-2013)

في البداية، كان العرساليون، مثلهم في ذلك مثل كثير من السنة اللبنانيين، ينظرون إلى الانتفاضة السورية بوصفها نقطة تحول استراتيجية، مرشحة لإضعاف المحور السوري – الإيراني في الشرق الأوسط وعكس تنامي قوة حزب الله داخل لبنان. كما كانوا يأملون بأن التطورات الحاصلة في الجوار ستساعد عرسال على الخروج من عزلتها. شاركوا في المظاهرات الداعمة للثورة، وألقى عدد من المسؤولين والشيوخ المحليين خطاباً وعظات حماسية ضد النظام السوري.²²

رغم حماسهم، فإن العرساليين لم يقدموا للمعارضة السورية دعماً مالياً يذكر في المراحل الأولى للثورة. وقد يكون مرد ذلك اعتقادهم بأن الانتفاضة كانت تتمتع بزخم كافٍ ولا تحتاج مثل ذلك الدعم. علاوة على ذلك، فإن أي مساعدة كانوا مستعدين لتقديمها كان يعيقها قمع النظام السوري لمدينة حمص إضافة إلى سيطرته على جبال القلمون الواقعة عبر الحدود إلى الشرق من عرسال، وبسبب الوجود المكثف لحزب الله في وادي البقاع.

رغم ذلك، فإن جغرافيا البلدة وميولها السياسية ضمنت أن ينتهي الأمر بها في عين العاصفة. منذ مطلع كانون الأول/ديسمبر 2011، اتهم وزير الدفاع اللبناني الموالي لسورية، فايز غصن، علناً أهل البلدة (دون تقديم أدلة) بايواء أعضاء في تنظيم القاعدة.²³ رغم ذلك، يبدو أن حتى حزب الله كان يعتبر العلاقة بين عرسال والمتمردين السوريين، والإسلاميين بوجه خاص، كانت ضعيفة في البداية.²⁴ لم تكن الجهادية العنيفة قد

سكان البلدة. ناشط اجتماعي قال: "العقود من الزمن، كنا نتمتع بعلاقات طيبة مع جيراننا ولم نكن نكثر كثيراً بالانتماءات الطائفية. إلا أن الاستقطاب المتنامي بين حزب الله وتيار المستقبل دفع السنة والشبيعة على حد سواء إلى مواقف أكثر راديكالية. اليوم، بات أي حادث بين سكان عرسال والقرى الشيعية المجاورة، حتى ولو كان لاعتبارات اجتماعية أو اقتصادية، يأخذ منحى مذهبي ويزيد من تصاعد التوترات الطائفية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، عرسال، تشرين الأول/أكتوبر 2012.

²⁰ يشكو العديد من العرساليين، ورغم التأييد الكبير الذي يحظى به تيار المستقبل في البلدة، بأنه لم يقدم الكثير من التنمية. قال أحدهم: "توقفت المستوصف عن العمل بشكل جيد بعدما سيطر تيار المستقبل عليه. الآن يحصل الأشخاص المرتبطون بالتيار على الخدمات بشكل أرخص أو مجاناً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محام عرسالي، بعلبك، أيلول/سبتمبر 2015. عرسالي آخر قال: "لم يجلب لنا ارتباطنا بالحريري سوى المتاعب. وضعنا في مواجهة مع محيطنا. والأكثر من ذلك، أن التيار دعم الشخصيات السياسية التي كانت تسعى لتحقيق أجنداتها الخاصة وعلى حساب مصلحتنا الجماعية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2015.

²¹ أُلحق التحول السياسي الذي قام به الحريري – زيارته إلى دمشق عام 2009، وتصاله مع بشار الأسد وتجدد الحوار مع حزب الله – والمشاكل المالية التي عانى منها تيار المستقبل، والتي دفعت تيار المستقبل إلى تقليص الخدمات الصحية والاجتماعية والمساعدات المالية لأنصاره، الضرر بمكانته بوصفه الزعيم الأول لسنة لبنان. في كانون الثاني/يناير 2011، انهارت حكومته في أعقاب استقالة أعضاء الحكومة المنتمين إلى حزب الله وحلفائه احتجاجاً على تعاون "14 آذار" مع المحكمة الدولية الخاصة بلبنان، والتي كان من المتوقع أن تدين أعضاء في حزب الله بالتورط باغتيال رفيق الحريري. في أعقاب تسمية نجيب ميقاتي رئيساً للوزراء عام 2011، ذهب الحريري إلى منفى اختياري. **الحياة، 20 كانون الأول/ديسمبر 2009؛ الجزيرة، 13 كانون الثاني/يناير 2011.** تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 130، "توازن هش: لبنان والصراع في سورية"، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2012.

²² مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان ومسؤولين محليين، عرسال، تشرين الأول/أكتوبر 2012.

²³ كما قال إن عرسال كانت مركزاً لتهديب الأسلحة إلى سورية. **الأخبار، 27 كانون الأول/ديسمبر 2011.**

²⁴ "تلعب عرسال دوراً ثانوياً فقط في دعم المعارضة السورية، ولا نعتقد أن دورها يمكن أن يتنامى بشكل كبير". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول كبير في حزب الله، بيروت، حزيران/يونيو 2012.

ترسخت بعد في أوساط المعارضة السورية، وكانت السلفية، بجميع أشكالها، ظاهرة هامشية في عرسال، التي لم يكن بين سكانها سوى بضعة شبوخ ينتمون إلى السلفية العلمية.²⁵ بدأت الأمور بالتغير عندما استمرت الحرب في سورية إلى أبعد مما كان كثيرون يتوقعون من أن الرئيس بشار الأسد ستم الإطاحة به، وخصوصاً عندما انزلت إلى حالة من العنف الشامل، وهددت بجر لبنان إلى دوامتها.

2. نقطة التحول التي شكلتها القصير (2013)

أصبحت المعركة التي دارت رحاها في أيار/مايو – حزيران/يونيو 2013 في القصير، وهي بلدة صغيرة في محافظة حمص قرب الحدود الشمالية للبنان، والتي حقق فيها الجيش السوري، مدعوماً بمقاتلي حزب الله، انتصاراً مهماً ضد حركة معارضة مسلحة ناشئة، نقطة تحول رئيسية في الصراع، بالنسبة للبنان أيضاً. إضافة إلى أنها منحت انتصاراً معنوياً لدمشق كانت بأمر الحاجة إليه، فإنها كانت أول مشاركة عسكرية علنية لحزب الله. بعد سنة من التقليل من أهمية الشائعات حول دوره، فإن الحزب عزى النجاح لنفسه وعبر عن التزامه بمشاركة أكثر استدامة.

أثر هذا التحول العسكري بشكل جذري في السياسات اللبنانية الداخلية، فبعث الحيوية في أنصار حزب الله الذين كانت تساورهم الشكوك سابقاً بسبب الهزائم المتتالية التي تعرضت لها دمشق.²⁶ وجهت هزيمة المعارضة المسلحة ضربة نفسية كبيرة لداعمي المعارضة، والإسلاميين السنة بوجه خاص، وإلى تراجع شعورهم بالقوة والتمكين.²⁷ وصلت العداوة بين المعارضة السورية – وداعميها في لبنان – وحزب الله إلى مستويات غير مسبوقة. اعتباراً من حزيران/يونيو 2013 فصاعداً، شنت المجموعات المسلحة التي تشكلت في خضم الأزمة السورية عشرات الهجمات ضد مقاتلي حزب الله والأحياء التي تقطنها أغلبية شيعية داخل لبنان.²⁸

دفعت القصير بعرسال إلى موقع أقرب من مركز جاذبية الحرب. أدى تدخل حزب الله، الذي كان يهدف إلى إبعاد المسلحين السوريين عن الحدود، إلى تكثيف وجودهم، حيث انسحبت مجموعات المعارضة المسلحة جنوباً، ما جعل من جبال القلمون معقلاً رئيسياً للمعارضة.²⁹ أدى هذا إلى تحويل عرسال إلى قاعدة خلفية وملاذ آمن للمجموعات المسلحة السورية، التي أصبح حزب الله والمجتمعات الشيعية المحلية هدفاً رئيسياً بالنسبة لها. عدد من العرساليين، المستائين من الدور العسكري لحزب الله في القصير، والذين أرعبهم انتعاش حظوظ النظام السوري، وكانوا مدفوعين جزئياً بالتضامن الطائفي، عززوا من تعاونهم مع المجموعات المسلحة. صحفي عرسالي شرح قائلاً: "بالنسبة للكثيرين، فإن سقوط القصير أحيى ذكريات هزيمة السنة في أيار/مايو 2008 [عندما استولى حزب الله على أجزاء من بيروت]. وأو أن الحزب يمضي إلى النهاية في الدفاع عن النظام وشعروا بأنهم لا يستطيعون الوقوف مكتوفي الأيدي".³⁰

²⁵ السلفية شكل متمزمت من الإسلام السني يستحضر الأبياء المؤسسين، السلف الصالح، ومن هنا الاسم الذي يطلق عليهم حالياً، وخصوصاً النبي محمد والخلفاء الأربعة الراشدين، لتحديد المبادئ الأساسية للإسلام. تصر السلفية على القراءة الحرفية للنص الديني وتدين جميع البدع بوصفها محرمة. السلفية العلمية أو الدعوية، تركز على الدعوة والتبشير كوسيلة لتعزيز أو إعادة إحياء الإيمان والمحافظة على تماسك مجتمع المؤمنين، في حين أن السلفيين الجهاديين يعتقدون بأنهم منخرطون في الدفاع العسكري عن (أو، في بعض الحالات، توسيع) دار الإسلام، وهي المنطقة من العالم الخاضعة تاريخياً للحكم الإسلامي، والأمة ضد الكفار. لتحليل معمق للتيارات الإسلامية، انظر تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا رقم 37، "تفهم التيار الإسلامي"، 2 آذار/مارس 2005.

²⁶ صحفيون مقربون من حزب الله ودمشق توقعوا بأن تغير القصير مسار الحرب. كتب أحدهم: "سيكون لسقوط القصير أثر الدومينو [بشكل يسمح] للجيش السوري بالسيطرة [على مدن أخرى]". المنار، 8 حزيران/يونيو 2013. الثور، 26 تشرين الثاني/نوفمبر 2013؛ الأخبار، 29 حزيران/يونيو 2013.

²⁷ انظر تقرير مجموعة الأزمات، "توازن هش، مرجع سابق".

²⁸ أحد الصحفيين السوريين، الذي كان حتى الانتفاضة أحد المؤيدين المتحمسين لحزب الله، قال: "إن التدخل الواضح والصريح لحزب الله في سورية مستفز جداً وسيكون له أثر غير قابل للعكس على علاقته بشرائح مهمة من الشعب السوري. في أوساط المعارضة، أصبحت كراهية دوائر المعارضة لحزب الله أكبر حتى من كراهيتها للنظام". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2013. الآن (الموقع الإلكتروني في بيروت)، 10 حزيران/يونيو 2013. انظر أيضاً الحاشيتين 31 و40 أدناه.

²⁹ من منظور حزب الله، فإن تدخله في سورية كان يهدف إلى منع انتشار السلفيين الجهاديين إلى لبنان: "لو لم نحارب في سورية، لكننا نحارب الآن في لبنان". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في حزب الله، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2013. انظر أيضاً تقرير مجموعة الأزمات حول الشرق الأوسط رقم 153، "حزب الله يتوجه شرقاً نحو سورية"، 27 أيار/مايو 2014.

³⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2015.

3. عرسال في دائرة الضوء

جرت معركة القصير على خلفية منذرة بالشؤم؛ حيث ازداد ضعف الجيش السوري الحر (الاسم الذي اتخذته جملة من مجموعات المعارضة المسلحة كي تصبح معروفة وتكتسب الشرعية) وتنامت قوة السلفيين الجهاديين الذين يتمتعون بتمويل أكبر، وقدرات عسكرية قوية – ومن وجهة نظر مؤيديهم – معايير إدارية وأخلاقية أفضل. مع تصاعد النزعة الراديكالية في المعارضة السورية، بدأت عرسال تحتل موقعاً بارزاً كنقطة دعم لمجموعات المعارضة المسلحة السورية، حيث بدأ بعض السكان بالميل نحو المجموعات المتطرفة. وكانت النتيجة، طبقاً لمصادر السلطات اللبنانية وحزب الله، أن عرسال أصبحت منطلقاً للهجمات الانتقامية ضد حزب الله، والأحياء ذات الأثرية الشيعية في بيروت والبقاع، والجيش اللبناني والأصول الإيرانية في لبنان.³¹

تكثفت صلات عرسال بمجموعات المعارضة المسلحة بعد انتصار الجيش السوري في آذار/مارس 2014 (بمساعدة حزب الله) في بلدة بيروت في جرود القلمون، ما دفع المجموعات المسلحة، بما فيها أعضاء في أكثر المجموعات راديكالية، لتنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصر، بشكل أعمق إلى المناطق الحدودية الجبلية مع لبنان. وصلت التوترات إلى أوجها في آب/أغسطس، عندما اعتقل جنود على نقطة تفتيش للقوات المسلحة اللبنانية على أطراف عرسال أحد قادة المجموعات المسلحة والمتهم بمبايعة تنظيم الدولة الإسلامية، ما أدى إلى اشتباكات عنيفة في البلدة بين الجيش اللبناني والمجموعات المسلحة السورية القادمة من منطقة القلمون من خلال جرود عرسال.³² رداً على ذلك، هاجمت مجموعات المعارضة المسلحة التابعة لتنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصر وغيرها من المجموعات الأصغر نقاط تفتيش لبنانية تحيط بعرسال، فقتلت بضعة جنود ورجال شرطة؛ ودخلت إلى أبنية حكومية وأمنية في البلدة، وأخذت عشرات الرهائن؛ وحاولت السيطرة على أجزاء من عرسال.

كان ذلك أول توغل للمعارضة المسلحة إلى لبنان من القلمون، وبالتالي أول تحدٍ خارجي لقوات الأمن اللبنانية. رد الجيش اللبناني بهجوم معاكس سريع، بينما أغارت القوات الجوية السورية على المقاتلين في جرود عرسال داخل لبنان. بعد معركة دامت خمسة أيام ووساطة من قبل هيئة العلماء المسلمين في لبنان، انسحب المقاتلون إلى جبال القلمون. في أعقاب ذلك أقامت القوات المسلحة اللبنانية نقاط تفتيش إضافية حول عرسال، ورفضت شبه حصار عليها.

تسببت المواجهة في دمار مادي كبير وسقوط عشرات الضحايا بين المدنيين، والجيش والمقاتلين السنة، وتركت 29 جندياً ورجل شرطة في أيدي تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصر.³³ كما كان لها أثر أبعد مدى على عرسال. الجهاديون وأنصارهم داخل البلدة أوقعوا الأغلبية الساحقة من العرساليين فيما يشبه المصيدة،

³¹ ضرب تفجير انتحاريان مزدوجان كل من السفارة الإيرانية والمركز الثقافي الإيراني في بيروت في تشرين الثاني/نوفمبر 2013 وشباط/فبراير 2014 على التوالي. *The Daily Star*, 26 August 2013، رويترز، 19 شباط/فبراير 2014. يمكن الإشارة إلى بضعة هجمات من هذا النوع ربطتها السلطات اللبنانية بأشخاص من عرسال مثل تفجير سيارة مفخخة في آب/أغسطس 2013 في بئر العبد في بيروت أدى إلى جرح ما لا يقل عن 53 شخصاً و هجوم انتحاري في الرويس، وهو حي آخر في بيروت، أدى إلى مقتل ما لا يقل عن 25 شخصاً وجرح أكثر من 200. حمل وزير الدفاع حينذاك مسؤولية استهداف قوافل لحزب الله بعبوات ناسفة زرعت على جانب الطريق في حزيران/يونيو - تموز/يوليو 2013 إلى مسلحين يتخذون من عرسال مقراً لهم. في تشرين الأول/أكتوبر 2013، فكك الجيش اللبناني سيارة مفخخة بخمسين كيلو غراماً من المتفجرات في المعمورة، وهي منطقة في جنوب بيروت يتمتع حزب الله بنفوذ كبير فيها. أدين ثلاثة عشر شخصاً، معظمهم من عرسال، وزُعم أنهم اعترفوا بعضويتهم في جبهة النصر. في الأسبوع التالي، زعمت مذكرة أمنية مسربة أن جبهة النصر كانت قد أرسلت أربع سيارات مفخخة إلى لبنان عبر عرسال كي تنفجر في "معاقل حزب الله" (التي يقطنها غالباً مدنيون عاديون ممن قد يكون أو لا يكون لهم انتماءات سياسية). الآن، 20 تشرين الأول/أكتوبر 2013. *The Daily Star*, 26 August 2013; Naharnet, 16 August 2013.

³² August 2013, 29 October 2013 and 4 December 2013. طبقاً لعدة تقارير، فإن أبو أحمد جمعة، قائد لواء فجر الإسلام، كان في الماضي عضواً في جبهة النصر وبيع تنظيم الدولة الإسلامية قبل اعتقاله بفترة قصيرة. انظر *العربي الجديد*، 3 آب/أغسطس 2014؛ *الجزيرة*، 4 آب/أغسطس 2014؛ *النهار*، 26 كانون الأول/ديسمبر 2014.

³³ أعدمت كل مجموعة اثنين من أسراها، وفي حالة تنظيم الدولة الإسلامية بقطع رأسي أسيريهما. في كانون الأول/ديسمبر 2015، دفعت صفقة بوساطة قطرية بجبهة النصر إلى إطلاق سراح 16 أسيراً بينما أطلقت السلطات اللبنانية والسورية سراح 13 سجيناً من ذوي الميول الإسلامية، بما في ذلك الزوجة السابقة لزعيم تنظيم الدولة الإسلامية أبو بكر البغدادي. الشروط المحددة لتلك الصفقة غير واضحة لكنها تشمل، طبقاً لتقارير إعلامية، ممرراً إنسانياً يسمح بوصول المساعدات إلى اللاجئين في جرود عرسال؛ ونقل الجرحى من عرسال إلى تركيا من أجل المعالجة الطبية؛ ومنح الوضع القانوني للجرحى الآخرين الذين عبروا عن رغبة في البقاء في لبنان. "الجيش اللبناني وجبهة النصر يبادلان الأسرى"، *الجزيرة*، 2 كانون الأول/ديسمبر 2015.

وهم لم يكونوا يتفقون مع الوسائل العنيفة التي يتبعونها ولا أجدتهم المتشددة. أحد السكان قال: "في البداية دعمنا مجموعات المعارضة المسلحة التي كانت تشبهنا والتي تشاطرنا معها الأهداف نفسها المتمثلة بالإطاحة بديكتاتور واستعادة الحقوق السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، وليس الإسلاميين الذين يريدون تأسيس إمارة". مواطن آخر عبّر عن غضب واسع الانتشار في البلدة قائلاً: "جر حفنة من العرساليين البلدة بأكملها إلى معركة لم تكن معرفتنا. وضعونا ضد الجيش والشعب اللبناني برمته. دفعنا ثمناً باهظاً بسببهم".³⁴

رغم احتواء التهديد، فإن تنظيم الدولة الإسلامية، وإلى حد أقل، جبهة النصرة يستمران بفرض تحدٍ كبير على الأمن اللبناني، في حين تشكل عرسال بؤرة هذا التحدي. الوجود المكثف للجيش على حدود البلدة قلّص بشكل كبير وصول المقاتلين إلى لبنان لكنه لم يضع حداً له. لا يزال المقاتلون يجدون طرقاً إلى المنطقة عبر الطرقات الوعرة التي تربط عرسال بمنطقة القلمون. في محاولة لتحاكي معركة ثانية، وبسبب عدم رغبتها بالظهور بمظهر من يقاتل نيابة عن حزب الله، فإن الجيش اللبناني أحجم إلى حد كبير عن ملاحقة المقاتلين السوريين في البلدة أو في خراجها، بينما امتنعوا هم، فيما يشبه اتفاقاً ضمنياً، عن القيام بأعمال ملقاة للنظر.³⁵

علاوة على ذلك، فإن المجموعات المسلحة تحتفظ بوجود في جرود عرسال، التي باتت منطقة خارجة عن السيطرة وحيث يذكر أن تنظيم الدولة أنشأ محاكم قضائية موازية داخل بعض مخيمات اللاجئين السوريين غير الرسمية.³⁶ في كانون الأول/ديسمبر 2015، أقرّ اتفاق جرى بوساطة قطرية بين السلطات اللبنانية وجبهة النصرة، بين أشياء أخرى، على إنشاء منطقة آمنة في وادي حميد، في جرود عرسال، فيما بدا على أنه مصادقة على وجود المجموعة بحكم الأمر الواقع.³⁷ يتحدث السكان عن مسلحين، يُعتقد على نطاق واسع بأنهم أعضاء مجموعات جهادية، أعدموا لاجئين سوريين اتهمهم المقاتلون بأنهم مخبرين أو بغرض تسوية حسابات شخصية.³⁸ لقد ساعدت الإجراءات التي اتخذت حول عرسال في احتواء التهديدات الأمنية، مع تلاشي عمليات القصف في لبنان. إلا أن وضع عرسال يبقى متذبذباً جداً؛ حيث يستمر القتال في محيطها وفي منطقة القلمون، بمشاركة حزب الله، والجيش اللبناني، وقوات الحكومة السورية وقوات المعارضة المسلحة، بما في ذلك المجموعات المتطرفة مثل تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة.³⁹ شكّل تفجير مميت في تشرين الثاني/نوفمبر 2015 في شارع مكتظ بالمارة في برج البراجنة في الضواحي الجنوبية لبيروت تذكيراً بأن المشكلة أبعد ما تكون عن الحل.⁴⁰ كما أن أزمة الرهائن لم تنته. لا يزال تنظيم الدولة الإسلامية يحتجز تسعة رهائن تم أسرهم في اشتباكات آب/أغسطس 2014. في أفضل الأحوال، فإن الوضع تجمد، وتُرثت المشاكل لتتفاقم، ليس أقلها تلك المرتبطة بالتدفق الكبير للاجئين السوريين الذي تسارع بعد عام 2013.

ب. عامل اللاجئين

تماماً كما جعلت التركيبة السكانية لعرسال وقربها من الحدود بؤرة لتوسع الأعمال العسكرية، فإن العوامل نفسها جعلتها هشّة أمام التحديات التي يواجهها لبنان في استيعاب السوريين الهاربين من الصراع. بحلول أواخر عام 2015، بلغ عدد اللاجئين أكثر من ربع سكان البلاد. رغم ما يبدو من ضخامة الرقم، فإن الظروف

³⁴ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بعلبك، 29 أيار/مايو 2015.

³⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان، وصحفيين، وجندي لبناني، بعلبك، بيروت، أيار/مايو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

³⁶ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان من عرسال، بعلبك، بيروت، أيار/مايو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

³⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بعلبك، أيار/مايو 2015. "الجيش الإسلامي وجبهة النصرة"، مرجع سابق.

³⁸ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان من عرسال، بعلبك، بيروت، أيار/مايو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

³⁹ في شباط/فبراير 2016، اصطدم مقاتلو تنظيم الدولة وجبهة النصرة حول محاولة فاشلة للتوصل إلى اتفاق لتبادل الأسرى في جرود عرسال. المؤسسة اللبنانية الدولية للإرسال (LBCI)، 3 و8 شباط/فبراير 2016.

⁴⁰ قتل في التفجير ما لا يقل عن 40 شخصاً وجرح أكثر من 200 عندما انفجرت قنبلة يحملها انتحاري وعبوة منفصلة في الحي ذي الأغلبية الشيعية. أعلن تنظيم الدولة الإسلامية مسؤوليته، ما تسبب في موجة متجددة من المخاوف من قدرة المجموعات الجهادية ونيتها التوسع في لبنان واستهداف المدنيين. منذ نيسان/أبريل 2014، أوقفت "خطة أمنية" موجة من الهجمات. كانت التفجيرات الانتحارية في كانون الثاني/يناير 2015 في منطقة جبل محسن ذو الأغلبية العلوية في طرابلس، كتفجير برج البراجنة، مثلاً نادراً على اختراق العنف الجهادي للهدوء. أبرز كلا الهجومين نقاط الضعف الرئيسية في الخطة والمتمثلة في الاعتماد على التدابير الأمنية بينما يتم تجاهل الأسباب العميقة المتمثلة في النزوح السني والشيعي نحو المزيد من الراديكالية التي تغذيها الأحزاب السياسية والرعاة الإقليميين؛ والشروط المريعة التي يعيش في ظلها اللاجئون؛ وتدهور الأوضاع الاجتماعية – الاقتصادية للبنانيين؛ وتلاشي المؤسسات والخدمات التي تقدمها الدولة. طبقاً لتقارير إعلامية، فإن المجموعة المرتبطة بتنظيم الدولة الإسلامية التي خططت لهجوم برج البراجنة كانت تتخذ من ضواحي عرسال مقراً لها وهربت الشخصيين الذين ارتكبا الهجوم إلى بيروت عبر البلدة. السفير، 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2015؛ الأنوار، 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2016.

في عرسال أكثر دراماتيكية؛ فالبلدة التي كان يبلغ عدد سكانها عام 2011، 30,000 نسمة استوعبت، طبقاً لمعظم الروايات من 80,000 إلى 90,000 لاجئ، ما ضاعف عدد سكانها إلى حد أربع مرات.⁴¹ بين بداية الأحداث في سورية وتشيرين الثاني/نوفمبر 2013، أوت عرسال حوالي 30,000 لاجئ، إلا أن القتال بين قوات النظام ومجموعات المعارضة المسلحة في منطقة القلمون منذ أواخر عام 2013 رفع عدد أولئك الذين سعوا للجوء هناك. مع استمرار القتال في منطقة القلمون، فإن عدداً قليلاً جداً من السوريين يعتقدون بأنهم سيتمكنون من العودة إلى سورية في المستقبل المنظور. لقد استقر كثيرون داخل عرسال، في حين سعى الآلاف للحصول على مأوى في المخيمات غير الرسمية في ضواحي البلدة.⁴²

تُعزّض جسامه هذه الأزمة على نحو متزايد العلاقات التي كانت ودية في البداية بين اللاجئين والسكان، والذين استضاف كثيرون منهم منذ البداية سوريين في منازلهم وتشاركوا معهم في السلع الأساسية، لتوتر متزايد. مع تصاعد حدة القتال في سورية، فشلت المنظمات الدولية والحكومة اللبنانية في تلبية الاحتياجات الإنسانية المتزايدة التي وضعت ضغطاً كبيراً على البلدة التي كانت أصلاً تفتقر إلى الموارد الكافية، والخدمات الأساسية، والبنية التحتية وفرص العمل. بدأ كرم الضيافة يتلاشى تدريجياً ليحل محله التوتر. شعر العرساليون بالخوف والذهول من التحول الديموغرافي الكبير والضغط على مواردهم الشحيحة، وحملوا اللاجئين مسؤولية الصعوبات الاقتصادية المتزايدة وتدهور الأوضاع الأمنية. إحدى الأمهات عبّرت عن مشاعر يشاطرها إياها كثيرون: "لقد أصبحت الحياة لا تطاق. لم أعد أعرف [بلدتي]. بت أخاف من ترك أطفالنا يلعبون في الخارج أو يمشون وحدهم. كل يوم أسمع عن حالات سرقة، واعتداءات، وشجار في الشوارع. لقد سادت الفوضى". يُذكر أن العديد من الأسر تركت البلدة بحثاً عن مزيد من الاستقرار، وسكنت في بلدات أخرى في البقاع أو في بيروت.⁴³

ما أساء للعلاقات بين اللاجئين السوريين ومضيفيهم العرساليين على نحو خاص (واللبنانيين بشكل عام) كانت المزاعم بأنه، وخلال معركة آب/أغسطس 2014، انضم عدد من اللاجئين إلى تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة ضد القوات المسلحة اللبنانية. شعر العديد من العرساليين بأنهم تعرضوا للخيانة، وحملوا ضيوفهم مسؤولية الدمار والخسائر التي لحقت بهم خلال القتال، ما فاقم من مشاعر الحذر والتوتر بين المجموعتين.⁴⁴

لقد كانت هذه الديناميكيات هي التي حفّزت المقاربة الأمنية التي تبنتها الحكومة حيال أزمة اللاجئين في لبنان ووفرت لها الشرعية الشعبية. مسؤول عسكري رفيع عبّر عن مشاعر باتت سائدة بشكل متزايد: "إن مخيمات اللاجئين باتت حواضن للإرهابيين. على المدى الطويل، باتوا يشكلون مخاطرة حقيقية على استقرار لبنان".⁴⁵ داهم الجيش اللبناني بشكل متكرر المخيمات الواقعة في عرسال وحولها وفي أماكن أخرى، وُزعم أن الجنود ارتكبوا انتهاكات لحقوق الإنسان.⁴⁶ بشكل عام، فإن حالة عرسال باتت تستخدم بشكل متزايد لتبرير الإجراءات القاسية والتمييزية ضد السوريين في سائر أنحاء لبنان.⁴⁷ في معرض دفاعه عن حظر تجول فرض بشكل خاص على السوريين، قال رئيس بلدية إحدى القرى في الشمال: "نفضل فرض حظر التجول بدلاً من المخاطرة بقرينتنا. لا نريد أن يحلّ بنا ما حلّ بعرسال".⁴⁸

⁴¹ سجل حوالي مليون لاجئ بشكل رسمي لدى مفوضية الأمم المتحدة العليا لشؤون اللاجئين (UNHCR) في كانون الأول/ديسمبر 2015. في مؤتمر المانحين الذي عقد من أجل سورية في لندن في شباط/فبراير 2016، قدر رئيس الوزراء تمام سلام العدد الإجمالي للاجئين بحوالي 1.5 مليون. UNHCR, "Syria Regional Refugee Response"، بعض الذين تحدثت إليهم مجموعة الأزمات قدر الرقم في عرسال بـ 120,000. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصية عرسالية محلية، ومسؤول عسكري، بعلمك، بيروت، أيار/مايو - تشرين الأول/أكتوبر 2015.

⁴² *The Daily Star*, 18 November 2013. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان من عرسال، وشخصيات محلية، بعلمك، بيروت، أيار/مايو - تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

⁴³ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان من عرسال، بيروت، بعلمك، أيار/مايو - تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

⁴⁴ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان من عرسال، وصحفيين لبنانيين، بعلمك، بيروت، أيار/مايو - تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

⁴⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، حزيران/يونيو 2015.

⁴⁶ "Lebanese army raids Syrian refugee camps in Aarsal", BBC, 24 September 2014; "World Report 2015: Lebanon", Human Rights Watch, January 2015; "Above criticism: Lebanon's army and the national media", Middle East Eye, 17 April 2015.

⁴⁷ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مواطنين لبنانيين في سائر أنحاء البلاد، ومع مسؤولين محليين ووطنيين، بيروت، طرابلس، جنوب لبنان، بعلمك، أيار/مايو - تشرين الأول/أكتوبر 2015.

⁴⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، عكار، أيلول/سبتمبر 2015.

إن وصم السوريين بهذه الطريقة والسياسات الناجمة عن ذلك تخاطر بتحويل المخاوف إلى نبوءة تحقق ذاتها. يشعر اللاجئون، كمضيفيهم، بانعدام الأمن بشكل متزايد؛ ويتحدث كثيرون منهم عن تعرضهم لهجمات واعتداءات من الأجهزة الأمنية اللبنانية والمدنيين على حد سواء. لجأ بعضهم إلى المجموعات الجهادية من أجل الحماية؛ بينما أصبح آخرون مخبرين لدى الأجهزة الأمنية، وهي نزعات تغذي المزيد من انعدام الثقة والتهميش.⁴⁹ أحد العاملين في الرعاية الاجتماعية شرح قائلاً: "في عرسال، يشعر اللاجئون أنهم دون حماية. يُنظر إليهم على أنهم إما إرهابيين أو مخبرين".⁵⁰ وهذا ما لا يترك مجالاً يذكر بين الحالتين ويدفع المزيد من الأشخاص نحو حالات متطرفة مع شعورهم المتزايد بالإقصاء. لا ينبغي التقليل من أهمية التكاليف المحتملة بعيدة المدى لهذه الحلقة المفرغة؛ حيث تتغذى المجموعات المتطرفة بشكل خاص على مشاعر الاستياء، والظلم والخذلان. لذلك، ومع تراكم المظالم والشعور بالعزلة في أوساط اللاجئين، فإن لا أحد سيستفيد من هذا الوضع سوى تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة.

IV. هل المشكلة قابلة للاحتواء

يقوم اليوم أكثر من 4,000 من جنود الجيش اللبناني بحراسة مداخل عرسال، حيث يتحققون من بطاقات هوية الأفراد لمنع اختراق البلدة من قبل مجموعات المعارضة السورية المسلحة. العديد من الأشخاص الذين التقطهم مجموعة الأزمات يدعون بأنهم تعرضوا للتخويف أو المضايقة على نقاط التفتيش هذه.⁵¹ في حين أن الوجود العسكري الكبير يمكن أن ينجح في تعزيز الأمن من خلال تقليص التوغلات الجهادية الجديدة، فإن المقاربة أحادية البعد التي تنتهجها بيروت تتسم بقصر النظر. لم تتخذ الحكومة أي إجراء لمعالجة المظالم الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية التي كانت تعتمل منذ مدة طويلة تحت السطح. وينطبق الشيء نفسه على مناطق أخرى في البقاع، وكذلك في عكار، وطرابلس، وصيدا، ومخيمات الفلسطينيين وبعض المناطق في بيروت، وجميعها شهدت صدمات في الماضي.

في حين أن مقاربة الحكومة فعالة عسكرياً ويمكن فهمها بالنظر إلى شلل الدولة ونضوب الموارد، فإنها غير قابلة للاستدامة. في معظم المناطق والمواقع المذكورة أعلاه، كان الجيش أحد المؤسسات النادرة النشطة الذي يقوم بوظائفه على نحو جيد. في طرابلس على سبيل المثال، تمت معالجة العنف المذهبي في منطقتي باب التبانة وجبل محسن المحرومتين حصراً من خلال التدابير العسكرية والأمنية، رغم أن مصادر العنف هي البطالة، والفقر، والأمية والتهميش – والتطرف الذي ينمو في مثل هذا الواقع.

سيفشل قمع التطرف السنّي بالقضاء على المشكلة إن لم يكن مصحوباً باستراتيجية سياسية تهدف إلى عكس شعور السنة بالتهميش من خلال وضع حد للتكتيكات القمعية. كما أنها لن تنجح طالما أن الأحزاب الحاكمة، وحزب الله وتيار المستقبل بشكل خاص، تستمر بالانخراط في خطاب وممارسات طائفية.⁵² تؤدي العداوة بين داعميهما الإقليميين، والتي تتخذ في كثير من الأحيان بُعداً طائفيًا، إلى تفاقم النزوع نحو الراديكالية. قد يكون العرساليون لعبوا دوراً في تردّي علاقتهم بالدولة، إلا أنهم ناشدوها وبادروها بشكل متكرر لإعادة الانخراط. في عام 2012، تجاهلت بيروت مطالبهم للحماية من الغارات الجوية المتكررة التي زعم أنها استهدفت مواقع المعارضة السورية في ضواحي البلدة. في حزيران/يونيو 2013، أصابت إحدى هذه الهجمات مركز البلدة، وأدت إلى جرح عدة مدنيين.⁵³

بحلول آب/أغسطس 2014، عندما دفعت التوغلات الكاملة لتنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة أخيراً إلى رد قوي من قبل القوات المسلحة اللبنانية، فإن التدخل لم يرق إلى التوقعات الشعبية. أحد السكان قال: "كنا نحن من طالب الجيش أولاً بدخول عرسال، قبل اختراق [تنظيم الدولة الإسلامية وجبهة النصرة]، أردنا

49 مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصيات محلية، وسكان، وعامل في الرعاية الاجتماعية، وعامل في مجال حقوق الإنسان، بعلبك، بيروت، أيار/مايو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

50 مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2015.

51 مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان من عرسال، وصحفيين، وعامل في الرعاية الاجتماعية، وعامل في مجال حقوق الإنسان، بعلبك، بيروت، أيار/مايو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

52 تدخل حزب الله عسكرياً لدعم النظام السوري، في حين أن تيار المستقبل دعم المعارضة السورية. تبني الطرفان مواقف متعارضة تماماً حيال الصراعات في العراق واليمن أيضاً، كما أن قادتتهما منخرطون في حرب كلامية. لقد أدى كل ذلك إلى تعميق الانقسام السنّي – الشيعي.

53 وكالة الصحافة الفرنسية، 16 حزيران/يونيو 2013. استثناء نادر حصل في كانون الأول/ديسمبر 2013. مع تنامي الاستياء من هجمات النظام السوري، أطلق الجيش اللبناني مضادات للطائرات التي هاجمت خراج عرسال، وهو أول استخدام للقوة ضد الجيش السوري منذ نهاية الحرب الأهلية في لبنان.

من الدولة فرض سيادتها بالانتشار في البلدة وضمن الأمن. لو أصغوا إلينا، لما انتهى الأمر بنا في هذا الوضع المزري".⁵⁴

عمقت سياسة الاحتواء القائمة أساساً على البعد الأمني من عزلة عرسال، بينما فاقمت من المظالم الاجتماعية والاقتصادية العميقة. كي يتمكن زوار عرسال من دخولها، ينبغي عليهم الحصول على تصريح تصدره المخابرات العسكرية⁵⁵ بشكل محدود جداً بحيث لا يتشجع الكثيرون على محاولة الحصول عليه. لقد أدت مثل هذه الإجراءات إلى أشكال جديدة من الاستياء. أحد السكان قال: "دولتنا تعاملنا كما لو كنا نعيش على أرض معادية". شخص آخر اشتكى قائلاً: "نحن ضحايا مرتين. لم تكن معاناتنا بسبب وجود المجموعات المتطرفة التي جلبت الحرب إلى البلدة فحسب، بل يترتب علينا تحمل سوء المعاملة والإذلال على أيدي جيشنا".⁵⁶ لقد أدى القمع الأمني إلى الضغط على الموارد الشحيحة للعساليين، ومنع الكثيرين من الوصول إلى المزارع والمقالم التي يعتمدون عليها في كسب رزقهم. أحد العمال قال: "إننا نزداد فقراً، ونفقد الوسائل التي تمكننا من إطعام أطفالنا. إذا لم أستطع جمع محصول أرضي هذه السنة، فسأفقد المحصول للعقد القادم كله".⁵⁷

ما لا يقل إثارة للقلق هو نشوء مشاعر جديدة بالتهميش تغذيها هذه الجهود الرامية إلى احتواء المشكلة. العديد من العساليين ينظرون إلى مواطنيهم اللبنانيين على أنهم متواطئين في الهجمات، والاعتقالات والأشكال الأخرى من إساءة المعاملة التي يخضعون لها، وبشكل غير تمييزي، هم واللاجئون المقيمون في البلدة وحولها. لقد أدى التعبير عن الدعم للجيش من قبل المسؤولين والمواطنين إلى ربط سكان عرسال بالمجموعات المتطرفة والإشارة إلى أن البلدة أصبحت مرتعاً للإرهابيين.⁵⁸ اشتكى أحد السكان قائلاً: "لقد تحول المجتمع كله ضدنا. إنهم يحاربوننا على جميع المستويات. إذا تقدمنا للوظائف، نُرفض لأننا من عرسال، عندما عُثر على بطاقة هوية رجل عرسالي في موقع أحد التفجيرات، اتُّهم مباشرة بأنه إرهابي. تبين لاحقاً أنه كان أحد الضحايا".⁵⁹

والنتيجة هي أن العساليين بدأوا بالتشكك بأجندة الجيش اللبناني وولاءاته، رغم سمعته لدى العديد من اللبنانيين بأنه أحد المؤسسات النادرة الوطنية والعبارة للطوائف فعلاً. لقد أصبح الاستياء من الجيش راسخاً إلى درجة أنه، وطبقاً للبعض، فإن العساليين يتجنبون الدخول إلى البلدة بلباسهم العسكري خشية الأعمال الانتقامية.⁶⁰ قائد مجموعة إسلامية معتدلة قال إن الجيش في عرسال "بات بمثابة شرطي يعمل لحساب حزب الله"، وكان يعبر بذلك عن شكوك باتت واسعة الانتشار بشكل متزايد بين أعداء حزب الله، وتتغذى على عمليات القمع المتكررة للإسلاميين السنة بينما يُغض الطرف عن نشاط الحزب العسكري في لبنان أو في سورية.⁶¹

⁵⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد سكان عرسال، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2015.
⁵⁵ يمكن للمرء الحصول على إذن إما في وزارة الدفاع في بيروت أو في فرع مخابرات الجيش في أبلح، على بعد بضعة كيلومترات من بعلبك.

⁵⁶ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان من عرسال، بعلبك، أيار/مايو 2015. أنكر مسؤولون عسكريون هذه المزاعم. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2015.

⁵⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد فلاحي عرسال، بعلبك، أيار/مايو 2015.
⁵⁸ في أعقاب معركة آب/أغسطس 2014، أصبح انتقاد الجيش محرماً، ما دفع إلى ظهور الإهانات والتهديدات على وسائل الاتصال الاجتماعي رداً على ذلك. انظر أيضاً، www.facebook.com/supportingthelebanesearmy/?fref=nf؛ www.youtube.com/watch?v=ndvirYqAfow؛ also, "Above criticism", op. cit

⁵⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد سكان عرسال، بعلبك، أيار/مايو 2015.
⁶⁰ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان، وجندي من عرسال، بعلبك، بيروت، أيار/مايو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

⁶¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول رفيع في الجماعة الإسلامية (الفرع اللبناني للإخوان المسلمين)، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2014. العديد من الإسلاميين السنة الآخرين، إضافة إلى العساليين، يزعمون بأن حزب الله حارب إلى جانب القوات المسلحة اللبنانية في صدامات آب/أغسطس 2014. آخرون، بمن فيهم محلل تربطه علاقات وثيقة بالجيش، يعتقدون أن هذا الأخير رفض أن يتعاون مع حزب الله خلال تلك الأحداث. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سكان محليين، ومتشددين سنة، وخبير في الشؤون العسكرية، بعلبك، طرابلس، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2014 – تشرين الأول/أكتوبر 2015. بعض من التقهّم مجموعة الأزمات يعتقدون بأن العلاقة بين الجيش وحزب الله قد تتغير في النهاية. يمكن لانتشار الجنود في البقاع، وهي منطقة يعتمد عليها الحزب الشيعي بشكل كبير لتهريب الأسلحة إلى (ومن) سورية، أن تتسبب بتوترات كبيرة. أحد الخبراء العارفين بالمؤسسة العسكرية قال: "يوسّع الجيش حضوره في سائر أنحاء لبنان. إنه يحصل على أسلحة ومعدات أفضل ويكتسب خبرة عسكرية. بعد 10 سنوات من

لأن الجيش اللبناني يرى في المتطرفين السنّة، الذين هاجموا عناصره بشكل متكرر، تهديداً وجودياً للبنان،⁶² فإن هدفه المتمثل في محاربتهم تقاطع مع أهداف حزب الله. إلا أن الطرفين اختلفا حول مدى القوة التي ينبغي أن يستعملها الجيش في مقاربتهم. لقد دفع حزب الله نحو تدخل أكثر قوة في المنطقة المحيطة بعرسال مما كانت المؤسسة العسكرية مستعدة للقيام به. في حزيران/يونيو 2015، أعلن زعيم الحزب، حسن نصر الله: "لقد قلنا مراراً بأن [عرسال] محتلة [من قبل المجموعات الإسلامية السورية]، وأن من مسؤولية الجيش والدولة اللبنانية تحريرها. يأمل الشعب اللبناني بأن يتحمل الجيش هذه المسؤولية الوطنية الكبيرة".⁶³ في عرسال، تمكّن الجيش من تحقيق توازن صعب، حيث أحجم عن الانجرار إلى الحرب السورية بينما ردّ على أثر حرب باتت أقرب فأقرب إلى الحدود. لقد حصر دوره "بحماية الحدود والأراضي اللبنانية. لن يتورط الجيش في الصراع السوري"، على حد تعبير مسؤول عسكري رفيع.⁶⁴

V. الخلاصة

تكشف عرسال عن عمق الترابط بين سورية ولبنان. لقد كان للتطورات على الجانب السوري من الحدود أثر كارثي على البلدة ومن المحتمل أن تستمر بإحداث أثر عميق هناك. لا يزال الوضع الأمني في عرسال متقلباً جداً بسبب القتال في جرودها وفي جبال القلمون السورية. كما أن الحرب وما نجم عنها من تدفق للاجئين أدت إلى تقليص الموارد الاقتصادية للسكان إلى الحد الأقصى، ومن المشروع التساؤل إلى متى يمكن الاستمرار في الوضع الراهن من وجهة نظرهم.

قد يبدو من التفاؤل القول إنه لا يزال من الممكن لمستقبل عرسال أن يكون أفضل، لكن حتى عدة خطوات صغيرة يمكن أن تؤدي إلى تحسن كبير في الأحوال المعيشية للسكان واللاجئين على حد سواء، وبالتالي ينبغي النظر في مثل هذه الخطوات على نحو عاجل. على السلطات اللبنانية أن تقلص أولاً وقبل كل شيء الإجراءات التي يتخذها الجيش في عرسال ومحيطها بطريقة تستمر، رغم ذلك، بإحداث أثر أمني فعال. أما التصاريح المطلوبة من غير سكان عرسال الراغبين بزيارتها فينبغي إما إلغاؤها أو منحها للجميع وحجبها فقط عن أولئك الذين توجد أدلة واضحة على أنهم يسعون لزعزعة استقرار الوضع. ينبغي أن يتم التحقيق بالمزاعم بارتكاب انتهاكات لحقوق الإنسان من قبل عناصر الأمن والجيش بشكل فوري ومعاقبة من تثبت إدانتهم. على السلطات أن تضع التدابير التي تمكّن المزارعين المحليين من الوصول إلى أراضيهم؛ وتيسير تقديم المساعدات الإنسانية الكافية للاجئين؛ ونقل على الأقل بعض اللاجئين المتمركزين في عرسال إلى مناطق أخرى من لبنان، وهي فكرة ناقشتها الحكومة لكنها لم تنفذها.

على البلدان المانحة زيادة دعمها للبنان للمساعدة في معالجة تدفق اللاجئين وتبعاته على نحو أفضل. كما ينبغي على الحكومة اللبنانية أن تعطي الأولوية لتخصيص أموال إضافية لعرسال من أجل تنفيذ مشاريع اقتصادية ومشاريع بنية تحتية مستدامة. وبشكل عام، ينبغي تغيير النهج الذي تتخذه حيال النقاط الساخنة العديدة في البلاد، ومعالجة المظالم الاجتماعية – الاقتصادية ذات المنشأ الداخلي، وفي الوقت نفسه تبني سياسة حيال اللاجئين السوريين تقلص التهديدات الأمنية وتضمن في الوقت نفسه احترام كراماتهم وحقوقهم. أما إذا استمرت بالرغم من ذلك بنهجها القائم بشكل أساسي على التدابير الأمنية والذي يتجاهل المطالب الأساسية والمعاناة الواضحة للعساليين وغيرهم، فمن المرجح أن تتعمق المشاكل وتتفاقم، وأن تنمو تدريجياً إلى الحد الذي تخرج به بسهولة عن نطاق السيطرة.

بيروت/بروكسل، 23 شباط/فبراير 2016

الآن، قد يصبح في وضع يمكنه من اتخاذ موقف أكثر صرامة حيال حزب الله". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات عبر سكايب، تشرين الأول/أكتوبر 2015.

⁶² مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين عسكريين، حزيران/يونيو – تشرين الثاني/نوفمبر 2015.

⁶³ المنار، 5 حزيران/يونيو 2015.

⁶⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، حزيران/يونيو 2015.

الملاحق أ. خريطة لبنان

